

خطبة لانيال

وموازنة بينها وبين

خطبة طارق بن زياد مولى موسى بن نصير

المستأثر مامر عبر القادر

وكبل كلية أصول الدين

تمهيد تاريخي :

حوالى القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد ، نشأت دولة شرقية فنية في إفريقية على الساحل الجنوبي الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، في البلاد المعروفة الآن ببلاد تونس . وكانت عاصمة هذه الدولة مدينة قرطاجة (Carthage) كما سميها الفرنجة . أو قرية حديشت كما كان يسميها مؤسسوها ، ومعناها باللغة الفينيقية « القرية الحديثة » أو المدينة الجديدة . وسموها المدينة الجديدة ليفرقوا بينها وبين مدينتهم القديمة عاصمة بلادهم الأصلية التي هي صور ، أو ليميزوها من مدينة كانت تسمى أوتيكا أسست قبالتها بنحو ثلاثمائة سنة ، وعلى بعد نحو خمسة عشر ميلا من شمالها الغربى .

ويظن البعض أن قرطاجة أسست في أواخر القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، والمؤرخون يقصون في تأسيسها أسطورة بديعة . ومهما يكن في هذه الأسطورة من صواب أو خطأ فلا ريب في أن قرطاجة كانت إحدى المدن الكبرى الهامة التي أسسها الفينيقيون على ساحل البحر الأبيض . وكان تأسيسها في عصر ملوك صور إحدى عاصمتي الدولة الفينيقية .

نشأت هذه الدولة . وأخذ شأنها يعلو من النصف الثانى من القرن

السادس قبل الميلاد ، وقد بلغت ذروة مجدها في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد أيضا ، وذلك حين ظهر فيها قائد حربى دوخ الأمم وفتح البلاد وشهد له أعداؤه بالمهارة الحربية والبراعة فى الحيلة العسكرية ، وعده المؤرخون من أكبر القواد الذين يتحدث عن مفاخرهم التاريخ ، وتشيد بذكرهم الأجيال المتوالية ، ذلك هو انيبال أو هنيبال أو حنيعل ^(١) ذلك الفارس القرطاجى الذى تولى القيادة العامة لجيش قرطاجة بعد وفاة حميه حَسَدُو وبال . وما زال نجمه فى الصعود حتى تمكن بذلك الجيش على قلة عدده أن يكتسح جميع الجيوش المعادية له فى إسبانيا وبلاد الغالة . وصار ينتقل من نصر الى نصر ، ويضم من يحب الانضمام إليه من جيوش أعدائه .

وقد بلغ أوج عظمته حينما دخل مدينة كانيا على الساحل الشرقى من إيطاليا ثم صار على بعد بضعة أميال من رومة . ولولا خذلان قومه له ، وميلهم الى المسالمة والصلح ، وعدم إمداده بالجيوش والذخيرة لكان من المرجح أن يتغير مجرى التاريخ العام باستيلائه على رومة وسيطرته على إيطاليا .

لما وصل ذلك القائد بجيشه إلى شمالى ايطالية ، وشعر بقوة مادية

(١) الاسم الأخير أقرب إلى الصواب فى نظرى ، ومعناه رحمة الاله ، لانه مركب من كلمتين هما حن وبعل ، أما الأولى فمادتها الأصلية ح ن ن وتدل فى اللغات السامية على العطف أو الشفقة أو الرحمة ، وتتصل بها مادة ح ن و ، ويضاهيها بالعربية حنان . وأما الكلمة الثانية فهى بعل ، ومعناها السيد أو الرب أو الاله ، وترد فى آخر كثير من الأسماء الفينيقية كما ترد كلمة « إيل » فى أواخر بعض الأسماء العبرية ، وكما يرد لفظ الجلالة فى الأسماء العربية مضافا إليه . وكانت ولادة حنيعل حوالى سنة ٢٤٨ ق م . ووفاته حوالى سنة ١٨٣ ق م .

ومعنوية بعد انتصاراته المتوالية ، أراد أن يعد جيوشه لاستئناف السير ، فأمرهم بالراحة لأنه آنس فيهم شيئا من الجهد والتعب ، بعد أن اقتحموا الجبال ، وعبروا الأنهار ، وخاضوا المعارك الدامية .
ويحدثنا التاريخ أن حنيغل كان سياسيا محنكا ، وخطيبا مصقعا ، وسيتين لك من الخطبة الآتية مبلغ قوة عارضته ، ومهارته الخطابية ، وقدرته على التأثير في نفوس المحاربين وتحريضهم على خوض غمار الحروب والحملة على الأعداء حملة رجل واحد .

وفي هذه الخطبة أيضا تتجلى عظمة الرجل ، وشدة اعتداده بنفسه ، واعتزازه بجيشه ، واحتقاره لجيوش أعدائه .

والظاهر من سياق الخطبة أنه خطبها في جيشه في مكان كانت جبال الألب من خلفه . ونهر ريو الواقع شمالي إيطاليا من أمامه ، وبحر الأدرياتيك عن شماله ، وخليج جنوة عن يمينه .

ولولا خشية التطويل لآتيننا بالخطبة جميعها ، فيكفي أن نأتي بنصفها الأول الذي يشبه من وجوه شتى خطبة طارق بن زياد المشهور .
والخطبة كلها بين يدي الآن بالانجليزية ولا يبعد أن تكون مترجمة عن لغة أخرى أو أكثر عن اللغة البونية التي هي وليدة اللغة الفينيقية . والترجمة كما تعلم لا يمكن أن تكون طبق الأصل تماما ؛ لأن لكل لغة روحا خاصة بها ، فليس من البعيد أن يكون هناك فرق بين ترجمتي وبين الأصل البوني . ومع ذلك فالغالب أن يحتفظ المترجم بالمعنى العام ، والصورة التي يريد الخطيب أن يصورها للسامعين مع تصرف في بعض التفاصيل القليلة الأهمية .

بعد هذا التمهيد أعرض على القارئ الكريم ترجمة النصف الأول من الخطبة فأقول :

قال حنبل مخاطبا جيشه :

أيها الجنود ، إني لا أدري إذا كان الحظ لكم أو لمن في أيديكم من الأسرى ؛ فقد شدّ بكم جميعا الوثاق ، وجمعت الحاجات ، فعن اليمين وعن الشمال بحران يكتفانكم ، وليست لديكم سفينة واحدة تهرعون إليها . ومن بين أيديكم نهر بو وهو نهر أعرض وأسرع جريا من الرون . ومن خلفكم جبال الألب ، تلکم الجبال التي لم تستطيعوا اقتحامها إلا بشق الأنفس حتى في أيام وفرة عددكم . فهيا أيها الجيوش ، فليس أمامكم إلا الفناء أو النصر على الأعداء يوم لقاءكم لهم .

أيها الجنود ، لا تيأسوا فإن تلك القدرة الالهية التي ألقت بكم في هذا المأزق الحرج الذي يرغمكم على القتال هي عينها التي أعدت لكم على مرأى منكم نعيما عظيما ليكون أجراً لكم على انتصاركم وجزاء لا يرجو أعظم منه إنسان من الله الباقي .

إنسان إن لم نستطع بآسكم وحميتكم إلا أن نعيد إلى حوزتنا صقلية وسردينية ، اللتين سلّهما العدو من آباءكم سلبا ، لكان ذلك جزاء وفاقا لا يستهان به ، ولكن أين هاتان مما أعد لكم من ثروة رومة الطائلة ، وأموالها المكسبة وغنائمها التي سلّتها الأمم الأخرى . كل هذه وأصحابها ستكون لكم وفي حوزتكم .

إنكم أيها القوم طالما استعبدتم واستخدمتم في رعي الأغنام والماشية فوق تلك الجبال الشاسعة ، جبال لوسيتانيا وكتيريا ، ولما تجزوا بعد جزاء يساوي ما تحملتم من مشاق وصادقتم من أخطار . أما الآن فقد آن أن تعوضوا خير عوض على مسيركم الشاق المجهّد ، وعلى اقتحامكم الجبال الشاهقة . وعيورك الأنهار الكثيرة ، وجوسكم خلال الديار التابعة

لأمم عديدة مسلحة ، وهنا حيث جعلت العناية الالهية منتهى سعيكم ومحط
رجالكم ، وههنا تضعون حدا لجهودكم الحربية المجيدة ، وتجزون الجزاء
الأوفى على خدماتكم التي أدبتموها تمام الأداء .

إني أربأ بكم أيها القوم أن تتصوروا أن الانتصار صعب المنال ،
أو تعتقدوا كما يعتقد الناس أن إعلان حرب على رومة أمر عظيم له
وقع في النفوس ولتعلوا أنه كثيرا ما تغلب جيش مستصغر على عدو
مستعظم ، وصمد له في معارك أريقته فيها الدماء ، وحصدت فيها الرؤوس
وكم ثلث عروش نخمة ، وأفنيت أمم عريقة في المجد على أيدي جيوش
قليلة العدد .

وإنكم لو جردتم رومة من اسمها الفخم البراق وصيتها الذائع فما الذي
يبقى لديها مما تستطيع أن تقف به أمامكم ، وتنافسكم في قوتكم وبأسكم ؟
وإننا لو تغاضينا عن خدماتكم الجليلة في تلك الحروب الطاحنة
المتعاقبة التي دامت عشرين حولا أظهرتم فيها ما أظهرتم من البسالة والاقدام
ونلتم فيها ما نلتتم من الفوز والنصر المؤزر . أقول لو تغاضينا عن هذه
كلها لبقيت لكم مفاخر أخرى أعلى شأننا وأجل منزلة .

ألم تأتوا من أسوار هر كوليس ، ومن أقاصى المحيط ، بل من أقاصى
حدود الأرض ؟ ألم تجوسوا خلال ديار لأقوام عرفوا بالمهارة الحربية
أمثال الاسبان والغالة ؟ ألم تصلوا إلى هذه البلاد منتصرين فائزين ؟
ومع ذلك فمن ستقاتلون ؟ ستقاتلون فلول جنود قواهم غير ناضجة ،
وجيشا يعوزه النظام . قد كسرت شوكته ، وحاصره الغالة صيف العام
الماضي . وما بالكم بجيش لا يعترف قائده ولا يعرفه قائده ؟

بعد ذلك الوقت بنحو تسعة قرون خرج طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ

من إفريقية مؤتمرا بأمر سيده موسى بن نصير ، وعبر البحر في جيش قليل العدد يريد فتح الأندلس . وقد كانت ظروفه تشبه ظروف حنبل حينما اراد السير إلى رومة .

ويروى لنا التاريخ أن لُذريق ملك القوط لما علم بقدوم طارق وعرف غرضه ، أعد جيشاً جراراً لمقاتلته ؛ فخاف طارق أن يجد الرعب سبيلاً إلى قلوب جنوده لقاتلهم ؛ فأحرق السفن التي أقلتهم حتى يقطع كل أمل في فرارهم وعودتهم إلى بلادهم . ثم قام فيهم خطيباً فحمد الله وثنى عليه ، ثم حثهم على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله فقال :

« أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته وأنواته موفورة ؛ وأتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخاضونه من أيدي عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حلتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أربأ فيها بنفسي . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه الألد طويلاً . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فيما حظكم فيه أوفر من حظي .

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدروال والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات

في قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزياناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستباحكم بمجالد الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذكر آفى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب إلى مادعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاعة القوم لذريق فقاتله إن شاء الله ، فاحملوا معى فان هلك بعدة فقد كفيت أمره ، ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلك قبل وصولى إليه فاضلّفوني فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المهّم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون . »

والمرء لا يعجب كثيرا لما بين هاتين الخطبتين من تشابه بين وتقارب ظاهر ، لأن الظروف التى دعت إليهما تكاد تكون واحدة ، ومنزلة كل من الخطيبين من جيشه تكاد تكون واحدة أيضا ، فكل كان يهاجم جيشا كبير العدد بجيش قليل ، وكل كان فى بلاد أجنبية عبر البحر إليها ، وكل كان ينتمى إلى أمة فقيرة ، ولو تسبى ، فى حاجة إلى التوسع فى الفتوح لأسباب سياسية اقتصادية ، وكل كان يقف من عدوه ومن البيئة الطبيعية المحدقة به موقفا حرجا فى حاجة إلى التشجيع والتجديد .

وإنك إذا قرأت كلا من الخطبتين ثم بحثتهما بحثا دقيقا ، ثم وازنت بينهما ، وجدت الشبه بينهما واضحا جليا . كأن الروح التى أملت هما واحدة .

وأيّن أظهر نقط الاتفاق في الخطبتين ؟ إقبال بأب الأمل في الفرار
والهزب من وجه المحاربين ، والتخويف من العقبات الطبيعية المحيطة بهم
من كل جانب ، والتخير بين الهلاك التام وبين النصر المبين ، والترغيب في
الغنائم التي يحصلون عليها لو انتصروا .

غير أنك تجد في خطبة حنبل نقطة واضحة تمام الوضوح هما
تذكير الجنود بماضيهم المجيد وانتصاراتهم الباهرة ، وتحقير شأن العدو
واستصغار قوته وكثرة عدده .

ولخطبة طارق على قصرها روعة خلابة ، وقوة مؤثرة . وليس أدل
على شدة تأثيرها من أن الجنود سمعوها فأطاعوا قائدهم ، وأمروا بأوامره
فبلغوا الغاية المقصودة .

